

مقاومة الأوراس للاحتلال الروماني ثورة تاكفاريناس نموذجاً. (17-24م)

الأستاذة: بن رحال يمينة
أستاذ مساعد أ. جامعة المسيلة

من المعروف أن نفوذ الرومان أخذ يتسع، ويمتد شيئاً فشيئاً في
مراحله الأولى، على المناطق المجاورة لروما، ثم بلاد إيطاليا الوسطى و
جنوب شبه الجزيرة الإيطالية، وواصلوا توسعاتهم الخارجية فتحصلوا على
مكاسب إقليمية خارج إيطاليا، والفضل يعود في ذلك إلى تلك الحروب التي
خاضها الرومان، قصد الحصول على مناطق جديدة لبسط نفوذهم، ولم يقف
الرومان عند هذا الحد فقط بل أخذوا ينظرون بعين الطمع إلى شمال
إفريقيا، لما تحتويه المنطقة من خصائص جغرافية وبشرية أهلتها على أن
تكون محط أنظار العالم الخارجي، ومن ثمة التناحر والتكالب على ممتلكاتها،
وخير دليل على ذلك أنه بعد نهاية الصراع الذي دار بين قرطاجة
والإغريق، حدث صراع مماثل بين روما وقرطاجة، هذه الأخيرة التي كانت
تعتبر أكبر منافس ومزاحم للإمبراطورية الرومانية في الحوض الغربي
للبحر الأبيض المتوسط⁽¹⁾، فتخوف الرومان منها جعلها تفكر دون تردد في
تصفية وجودها في المنطقة، لذلك دخلت معها في صراع عسكري
مرير، عرف بالحروب البونيقية الثلاث، امتدت فيما بين (264 ق.م - 146
ق.م)، فهذه الحروب لعبت دوراً تمهيدياً في احتلال الرومان لبلاد المغرب
القديم، وعلى اثر نهاية الحرب البونيقية الثالثة (149 ق.م - 146

ق.م) تمكن الرومان من القضاء على قرطاجة وتدميرها وحلوا محلها (2) وأزالو ملكها، ليتم إنشاء على انقاضها الولاية الرومانية، سميت بمقاطعة إفريقيا الرومانية واشرف على هذا الانجاز سبيون الاميلي سنة 146 ق.م (3)، وبالتالي فان زوال الدولة القرطاجية عزز من أمن الرومان في المنطقة، ودعم فكرة الإرادة الرومانية التي لا تقهر.

إن حصول الرومان على قرطاجة، التي كانت تمثل الحصن المنيع لبلاد المغرب القديم، فتح المجال واسعا أمام الرومان، للتوغل أكثر في بلاد المغرب، قصد توسيع مناطق نفوذهم والحصول على مكاسب اقليمية في المنطقة، فكان ذلك إيذانا بمصير مشابه بالنسبة لبقية الممالك الوطنية المغربية، التي اصبحت ترى في زوال قرطاجة انهيار الجدار الحصين، الذي كانت تحتمي خلفه بلاد المغرب و بالتالي أصبحت بقية المناطق المغربية الداخلية مكشوفة أمام الهجمات الرومانية و متوقع الاستلاء عليها و ميسور أمرها متى حان الأوان، فوجد المغاربة أنفسهم وجها لوجه أمام أطماع الرومان التوسعية، فراحوا يسلكون اساليب مختلفة لمقاومة و تمديد الأجل إلى حين، وزاد في إصرارهم ذلك الشعور القوي بوجود تحرير بلادهم من الغزاة الرومان، الأمر الذي جعلهم لا يترددون في الثورة ضد الرومان، لذلك نجد بلاد المغرب القديم قد عرفت العديد من الثورات المتتالية التي اندلعت في عدة جهات وخلال فترات زمنية متباينة، تعددت فيها القيادة والأسلوب العسكري، ولعل ثورة تكفاريناس إحدى النماذج الحية التي برهنت عن موقف سكان منطقة الاوراس، من التواجد الروماني و توغله نحو الداخل، فيا ترى كيف كانت إسهامات تكفاريناس في مقاومة الاستعمار الروماني؟ وما هي أبرز العوامل التي ساعدته على اندلاع ثورته؟ ما هي مراحلها؟ إلى أي مدى

استجاب سكان المنطقة لنداء تكفاريناس ؟ وهل حققت الثورة هدفها المنشود؟
وما انعكاساتها على الطرفين؟

لمحة تاريخية عن تاكفاريناس: TACFARINAS

تكفاريناس هو أحد أبناء منطقة الأوراس، ينتمي إلى قبيلة المزالمة⁽⁴⁾ نشأ في أسرة نبيلة، كان غيوراً على وطنه مخلصاً لأمته، شجاعاً وصنديداً، يتميز بشخصية حربية ممتازة⁽⁵⁾، أهله بأن يسطع نجمه إلى الأفق، عمل كمساعد في الجيش الروماني⁽⁶⁾ وهو في ريعان شبابه، وظل هنالك عدة سنوات يتعلم خلالها فنون القتال⁽⁷⁾ إلى أن برع في قيادة الجيش حيث اكتسب خبرة عسكرية في أسلحة الفرسان والمشاة، ولما صار ماهراً في ساحة القتال وعلى دراية كافية بأسرار القتال، فر من الجيش الروماني، وفي ظل قلة المعطيات التاريخية التي تتوفر لدينا يصعب علينا تحديد الأسباب الحقيقية التي دفنته إلى الانسحاب من الجيش الروماني، لكن أغلب الظن أنه تحركت فيه عزة النفس خاصة بعد أن تألم حسرة لما رآه في بني قومه من استغلال واستعباد على حد سواء من طرف السياسة الرومانية المجحفة في مختلف المجالات التي بات يعاني منها سكان بلاد المغرب القديم، الأمر الذي دفعه إلى تنظيم جيش وطني جعله تحت قيادته فاستنسل في محاربة القوات الاستعمارية الرومانية⁽⁸⁾.

أسباب الثورة:

لثورة تاكفاريناس عدة عوامل نذكر منها :

- 1- وجود الاستعمار الروماني وما ترتب عنه من سياسة قهر واستغلال وسوء معاملة النوميديين.

- 2- قيام الغزاة بتهجير السكان وإجلائهم عن أراضيهم وممتلكاتهم بهدف تثبيت وجودهم في بلاد المغرب على حساب البربر، الأمر الذي ولد لديهم رغبة ملحة في استرجاع أراضيهم.
- 3- بناء الطريق المحصنة " الليمس الأول⁽⁹⁾ " الذي يربط بين خليج السرت شرقا ومعسكر حيدرة بالقرب من تبسة غربا، حيث عسكرت الكتيبة الثالثة الأوغسطية وكانت هذه الطريق تشق الأراضي التي ينتجع فيها المزملة فعرقلت تحركاتهم.
- 4- سوء معاملة واحتقار الرومان للسكان المحليين، فقد كانوا يرونهم طبقة دنيا خلقت من أجل خدمة أغراض الرومان.
- 5- احتكار الرومان للوظائف العليا لأنفسهم ولا يتركون للسكان سوى الوظائف الصعبة التي لا يستطيع أبناء روما المدلون القيام بها.
- 6- شعور البربر بضرورة تحرير بلادهم من اطماع الرومان التوسعية في بلاد المغرب القديم.

مراحلها:

تم تقسيم ثورة تاكفاريناس إلى مجموعة من المراحل وفق القيادات العسكرية الرومانية التي تعددت و تعاقبت الواحدة تلوى الاخرى في بلاد المغرب القديم، و يمكن إيجازها في مايلي:

1) المرحلة الأولى(17-18م): حملة البروقنصل فريوس كاميلوس

Furius Camillus

قبل قيام الثورة عزم تاكفاريناس على جمع شباب كثيرين من خيرة أبناء القبائل الأوراسية،الناقمين على الملك يوبا الثاني⁽¹⁰⁾ وحلفائه الرومان⁽¹¹⁾، فدرّبهم على أساليب القتال، خاصة وإنه تشبع وأخذ الخبرة الكافية في قيادة الحروب،كونه كان ضمن الجيش الروماني، فراح يعرف ما تعلمه من تقنيات وفنون حربية لمن إنحاز إليه من النوميدي، من اجل تحرير بلادهم من الرومان

أنفسهم ومن البربر المواليين لهم، فكان تاكفاريناس شديد الحماس من أجل تحقيق أهدافه؛ ولقد ساعدته في ذلك طبيعة العنصر البربري في تحمل المشاق وسرعة الحركة، وهو ما سيكفل له تحقيق الانتصارات المنشودة⁽¹²⁾، فوفقت إلى جانبهم قبائل الجيتول⁽¹³⁾ الذين كانوا ناقلين على الرومان فتولدت لديهم رغبة ملحة في طرد الغزاة وتطهير بلاد المغرب القديم، ولما ثار تاكفاريناس عام 17م فرحوا فرحا كبيرا واستبشروا خيرا بمقاومته، وعندما قصدهم أزروه وأيدوه، استطاع ان يجمع منهم جيشا دربه أحسن تدريب وعلمه الأساليب الرومانية في القتال⁽¹⁴⁾.

ولما كان على رأس الولاية الرومانية في إفريقية كاميلوس⁽¹⁵⁾ فجهز جيشه وسار ليخمد المقاومة قبل أن تتقوى وتنتشر نيرانها، ولما رأى تاكفاريناس جيوش الرومان أبى إلا أن يخوض معهم معركة كبرى وسانده في ذلك قبائل المزالمة، وانظم اليهم الموريون جيرانهم الذين كان يقودهم قائد بربري موريطاني وهو مواليا لتاكفاريناس وثورته ويدعى مازيبا Masippa هذا الأخير تولى احدى القيادات العسكرية بجانب تاكفاريناس⁽¹⁶⁾.

لقد تمكن الثوار من إدخال اسلوبا جديدا لمخطط القتال، وهي طريقة عصرية مماثلة للتي يستخدمها الجيش الروماني، وهذا لم يمنعهم من الاحتفاظ بطريقتهم التقليدية التي اعتادوا عليها⁽¹⁷⁾، وهو أسلوب الكر والفر (حرب العصابات) الذي يجيده النوميديون، ويرهق الرومان المتعودون على المعارك المنظمة⁽¹⁸⁾.

اقتسم القائدان الجيش، فتولى تاكفاريناس بنفسه قيادة الرجال المقاتلين على الطريقة الرومانية بإعتباره جنديا مطلقا على الأساليب الرومانية أيام تواجده في صفوف الجيش الروماني، وترك لزميله مازيبا الرجال المقاتلين على الطريقة المعتادة عند النوميدي والمور، بما في ذلك أنواع السلاح والعتاد الحربي⁽¹⁹⁾ غير أن قادة المقاومة لم يأخذوا الوقت الكافي للاستعداد الجيد،

مما صعب عليهم السيطرة على تقنيات القتال الرومانية وتمارين الرجال عليها بقدر يضمن لهم تحكم أفضل يضمنون به فرض الثبات في ساحة المعركة، وكسب النصر على عدو يسود صفوفه النظام والانضباط والطاعة لقادته وبهذا يكون تاكفاريناس ورجاله قد دخلوا في معركة اختبارية خاضوها ضد جيش روماني بقيادة فوريوس كاميلوس *Furius camillus* فتقهقروا فيها وانسحبوا نحو الداخل عام 17م، وكان ذلك بضواحي وادي المثل. (20)

لقد نجح الرومان في بداية الأمر وانتصروا على قوات تاكفاريناس، ولكن لم تكن مهمة الحرب مع البربر لتنتهي بتلك السهولة أو بمجرد معركة واحدة، ذلك انهم سرعان ما كانوا يلجؤون إلى الهضاب ويعيدون تأسيس وتنظيم قواتهم مرة أخرى بسرعة البرق، ويبدوون في مهاجمة المراكز الرومانية والبربرية المعادية لهم، بصورة خاطفة تثير الاضطراب لدى أعدائهم. (21)

بعد التراجع والانهازم الذي ألحقته القوات الرومانية بالجيش النوميدي، ظن كاميلوس بأنه أحرز نصرا عظيما، يستحق عليه شرف التتويج، فعاد إلى روما ولم يعبأ بالجناح الموري، الذي كان يقوده مازيبا في مناطق أخرى من الجنوب الغربي النوميدي في المدن والقرى، مثيرا للربح والفرح في كل مكان يحل به، في الوقت الذي تقدم فيه تاكفاريناس رفقة قواته نحو الشمال، ليسيطر على الأقاليم الزراعية التي كانت بأيدي المستوطنين الرومان (22) حيث هاجم بجنده الرومان قرب وادي باجيدا شمال الأوراس، أين كان الرومان معسكرين بقوة كبيرة هناك، ففاجأهم تاكفاريناس بجنوده، فهزمهم شر هزيمة، واحتل مراكزهم وغنم منها غنائم كبيرة، ثم أسرع إلى مدينة تالة في غرب إفريقيا فحاصرها واحتلها (23) و نجح في تشتيت سرية رومانية والقضاء عليها بعد أن اعترض سبيلها ديكوريوس *Decoruis* فسقط في ساحة القتال ولم ينجو من رجاله سوى من لاذ بالفرار. (24)

وبهذا النصر العظيم يكون تاكفاريناس قد تمكن من رد الاعتبار لمقاومة النوميديّة المورية، حيث كشفت عن قدرة زعمائها في قيادة المعارك، وكسب نتائجها المثمرة بمعنى آخر أنه تحول نصر البروقنصل كاميلوس إلى هزيمة نكراء يشهد لها التاريخ.

II - المرحلة الثانية (18-21م): تاكفاريناس يواجه الرومان تحت قيادة

البروقنصل ل. أمبرونيوس L. Ampronius

أمام الانتصار الباهر الذي حققه تاكفاريناس وحلقائه على الجيش الروماني، سارع الإمبراطور الروماني تيبيريوس كلوديوس نيرون الذي حكم في الفترة الممتدة من 14 إلى 37م⁽²⁵⁾، إلى تعيين بروقنصل جديد على المقاطعة الإفريقية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى محو عار الهزيمة والنهوض بأمر الحرب من جديد، وكان البروقنصل الجديد يدعى أمبرونيوس L.ampronius⁽²⁶⁾ تزود هذا الأخير بتعليمات صارمة من شأنها أن تضع حدا لنشاط المقاومة، وتمحو آثار الهزيمة التي أحرزها ديكوريوس في أوساط الجند الروماني بإفريقيا، وأول ما قام به هو معاقبة الجنود الذين فروا من المعركة عقابا قاسيا، هدفه من ذلك هو إثارة الرعب والفرع في صفوف الجنود الآخرين حتى لا تكون هناك خيانة في صفوفهم، ولا يفكر أحدهم في الهروب من ميدان المعركة مهما كانت النتيجة، وهي طريقة شبيهة بطريقة قيصر أوكتافيوس أوغسطس، الذي حكم في الفترة الممتدة من 31 ق م إلى 14 م⁽²⁷⁾ في معاملة الجنود.

لقد تمكن المور و النوميديين من فرض أنفسهم في ساحة القتال خاصة بعدما سيطروا على الوضع، وحاصروا المدن والمواقع العسكرية في شمال وشرق الأوراس، التي أقامها الرومان بعد احتلالهم لأراضي المملكة النوميديّة، في هذا الوقت أمر البروقنصل أمبرونيوس بالإستعداد لإستئناف

القتال، كما إن الثوار النوميديين اضطروا إلى تغيير أسلوب القتال، فتحولوا من حرب المواجهة إلى حرب العصابات بعد فشلهم في التصدي لقتال كتبية رومانية مكونة من الجنود القدماء المتمردين⁽²⁸⁾ فلجأ تكفاريناس إلى الصحراء واعتمصم بها وصار يغير على المراكز الرومانية كلما أتاحت له الفرصة، فيضربهم الضربات القاسية.⁽²⁹⁾

أزر البربر تاكفاريناس و أيدوه في مقاومته، التي استبسل فيها وواصل القتال بالجنوب النوميدي بينما كان المور بقيادة مازيبا يسطرون على الجنوب المويثاني، مكبدين جيش يوبا الثاني وفصائل الرومان خسائر كبيرة، وكان لحرب العصابات اثر سيء على معنويات الرومان سواء المدنيون منهم أو الجنود مما تسبب في تعطيل العمل الفلاحي لانعدام الأمن وسيطرة الثوار على الطرق و القرى الفلاحية فكان على قيادة الجيش الروماني ان توزع نشاطها جغرافيا تبعا لمواقع الخطر، فترتب عن ذلك ضعف في فعاليتها العسكرية،ممل شجع المقاومة على مضاعفة نشاطها العسكري و تطوير طموحاتها السياسية⁽³⁰⁾ إزاء هذا الوضع كان الرومان مرتاعين لهذه الثورة، يحسبون لها ألف حساب، وكان تاكفاريناس يشعر بالقوة في ظل تزايد عدد أنصاره في المغرب، وهو ما جعله يرأسل إمبراطور الرومان تيبيريوس كلود يوس يطالبه بان يرجع الرومان إلى الولاية الرومانية والاكتفاء بها، وأن ينسحبوا عن بقية إفريقيا ونوميديا حتى يرجع إليها ملك أجدادهم⁽³¹⁾ عن طيب خاطر، كما هدده إن امتنع عن ذلك فسيشن حربا لا هوادة فيها فرفض الإمبراطور ذلك المطلب واعتبر هذا الإنذار وقاحة و جرأة نادرة⁽³²⁾. الأمر الذي جعل الإمبراطور يرسل إلى الثوار وعدا بالعفو إن هم تخلو عن تاكفاريناس ووضعو السلاح و جعل جائزة كبيرة لمن يغتال تاكفاريناس، غير أن الثوار كانوا مخلصين للوطن ولزعيمهم وقائدهم النوميدي، فزادوا حماسة للثورة وحباً لقائدهم⁽³³⁾ .

إن تأزم الأوضاع و تفاقمها نحو الأسوء، جعلت مجلس الشيوخ يعمل جاهدا من أجل إختيار قائد آخر، يكون أكثر كفاءة وقدرة على إخضاع الثورة وإنهاء وجودها والتي طال أمدها ونالت من هيبة روما وهزت سمعة جيشها العتيد، خاصة وان تهديدات تاكفاريناس لدليل قاطع وواضح على قوة المقاومة وتضعضع الجيش الروماني في إفريقيا.

III- المرحلة الثالثة (21-23م): تاكفاريناس يواجه الرومان بقيادة بليزوس

وقع اختيار الإمبراطور عام 21م على بروقنصل جديد يدعى يونيوس بليزوس Younius Blaesus، تزود هو الآخر بتعليمات عسكرية وسياسية من شأنها أن تخدم لهيب الثورة، و من ضرورة أن يبدو القنصل الجديد في مظهر القوة والبطش إزاء الثوار، واللين والملاطفة أمام القبائل الحيادية أو الجانحة إلى السلم، إضافة إلى قطع الوعود لها بالعمو و المكافأة والصدافة إن وضعت سلاحها أو قدمت عوناً مفيداً للجيش الروماني، أو سهلت مهمتها العسكرية في مواطنها⁽³⁴⁾ غير أن الخوف الشديد الذي يتميز به بليزوس من تاكفاريناس، جعله لا يقدر على النزول بجيشه إلا في الأماكن الحصينة خوفاً من هجماته المفاجئة عليه، ودام تاكفاريناس فترة زمنية طويلة وهو ينازل بقواته بليزوس حتى تكاثر عليه الرومان فالتجأ إلى الصحراء، ليستعد و تتسجم قواه ويظفر بفرصته ليجدد كرته على الرومان⁽³⁵⁾، وكون بليزوس يتميز بالنباهة والخبرة إذا ما قورن مع سابقه الأمر الذي جعله يحيك خطة جديدة في طريقة القتال و توزيع جيشه وفقاً للضرورات الإفريقية⁽³⁶⁾ حيث جهز فرقا عسكرية سريعة التنقل وخفيفة الحركة من أجل مناوشة عدوه، ووزعها على ثلاثة أقسام جعل على رأس كل قسم قائد، بحيث كان على رأس القسم الأول كورنيليوس سيكيبو Corneluis Scipio، مهمته

السيطرة على إقليم طرابلس والمناطق المجاورة لبلاد الغرامنت والأنصار التقليديين لثوار الشمال، وكان مركز قيادة هذا القسم لبدة، أما القسم الثاني مهمته مراقبة منطقة الوسط النوميدي إنطلاقاً من مدينة سيرتا Cirta⁽³⁷⁾ عاصمة المقاطعة، أسندت قيادته إلى ابنه، أما القسم الثالث أشرف بنفسه على قيادته واتخذ من البروقنصلية(تونس) منطقة لعملياته ثم أمر بإقامة التحصينات و تشديد المراقبة لرصد تحركات الثوار ومباغتتهم سيرا على طريقتهم في القتال بدلا من استجماع الجيش في المعسكرات، كما أنشأ بليزوس حصونا وقلاعاً لفرق الجيش وأمرها بالمكوث في النقاط الملائمة للمعارك، ومتابعة العدو كلما أمكن ذلك، وهو ما ساعد العدو من تحقيق عدة انتصارات مما جعل تاكفاريناس يتراجع نحو الصحراء باتجاه حلفائه الغرامنت قصد إجماع قواته والإعداد من جديد⁽³⁸⁾.

أثناء هذه الحروب كان يوبا الثاني هو الوالي على غرب نوميديا وعلى موريطانيا، يساعد ويؤيد الرومان في إخضاع الثورة وقمعها بكل ما يستطيع من إمكانيات مادية ومعنوية، غير أنه توفي عام 23م دون أن يصل إلى تحقيق مبتغاه، والمتمثل في إيقاف الموجة البربرية التحررية، فتولى مكانه ابنه بطليموس⁽³⁹⁾ فاقصر طيلة أيام ملكه على التباهي ببذخه موكلا السلطة إلى المعتقين من عبيده الأمر الذي دفع بعدد كبير من الموريين إلى مناصرة تاكفاريناس، الذي لم تقدر عليه كتائب روما حينذاك⁽⁴⁰⁾ الأمر الذي جعل تاكفاريناس يتحایل الفرص، من أجل محاصرة بعض المراكز الرومانية في الشمال، فكان له ذلك حيث شدد عليها الخناق⁽⁴¹⁾ و دعمه في ذلك الموريون الذين جمعوا أنصارا جدداً من قبائل الغرامنت، فوقفوا إلى جانبه بالمجهود الحربي إذ زودوه بالرجال والعتاد و الأموال.

وما شجع النوميديين على الانضمام إلى صفوف المقاتلين، أن فرقا رومانية غادرت إفريقيا باتجاه شبه الجزيرة الأيبيرية، فشاع في البلاد أن الرومان بدؤوا ينسحبون وأن ساعة التحرر من احتلالهم قد قربت⁽⁴²⁾.

V - المرحلة الرابعة (24م): تاكفاريناس يواجه الرومان بقيادة دولابيللا

Dolabella

لما اتسع نطاق الثورة وامتد لهيبتها من موريطانيا (أعمدة هرقل) غربا إلى سيرتا الكبرى شرقا أصبح الوضع حرجا يسوده التوتر والخوف أكثر من أي وقت مضى، وهو ما دفع بالامبراطور إلى تعيين بروقنصلا جديدا وقائدا عاما للجيش الرومانية في شمال إفريقيا بعد بليزوس سنة 24م، يدعى هذا الأخير دولابيللا حيث قام بإقامة مراكز عسكرية كثيرة على حدود الصحراء لتمنع تاكفاريناس من الالتجاء إليها⁽⁴³⁾، في هذه الأثناء حاصر تاكفاريناس مستوطنة عسكرية لقدماء الجنود الرومان تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة صلداي (بجاية) تبوسوتكو Tubusuctu كانت قد تأسست في عهد أوكتافيوس وهي تتميز بموقع عسكري واقتصادي ممتاز، أطلق عليها اسم الفرقة السابعة الأوغسطية⁽⁴⁴⁾، فقد سارع إليها دولابيللا رفقة فرقة هامة من قواته، من أجل فك الحصار عليها، الأمر الذي أجبر تاكفاريناس ورجاله على التخلي عنها فتوجهوا غربا حيث عسكروا بموقع أوزيا Ausia⁽⁴⁵⁾، وفيه كان تاكفاريناس يعتقد هو ورجاله بأنهم في مأمن بعيدين عن كل خطر، غير أن دولابيللا كان يترصد تحركاته ويتابعه، ثم باغته ليلا في الوقت الذي لم يكن فيه الثوار على استعداد للمقاومة، وقد تمكن جيش دولابيللا من تطويق المكان، ولما أدرك تاكفارناس بأنه مقتول أو مأسورا، فإختار الموتة الكريمة الشريفة، لذلك خرج من ملجئه ورمى بنفسه مواجهها العدو ومقاوما لضربات بضرارة وشجاعة نادرة، إلى أن سقط شهيدا في

ساحة الشرف رفقة جمع غفير من رجاله سنة 24م، لتخمد بذلك ثورته الشهيرة التي دامت حوالي 8 سنوات، كلها صفحات لامعة من مقاومة النوميدي للاحتلال الروماني .

وحسب ما جاء في كتاب على دبوز تاريخ المغرب الكبي، فإن بعض المؤرخين يرون بأن تاكفاريناس سار إلى مويتانيا ليجعلها ميدان حرب، لأن حاشية بطليموس قد طلبت منه ذلك وواعدته بالعون والتأييد، وهي نية لا تتسم بالروح الوطنية ولا تتحمس للثورة، وإن كانت الحاشية قد استدعته فعلا فما هي إلا مكيدة مدبرة من أجل إخراجها من الصحراء مما يسهل من مهمة محاصرتها في الشمال والقبض عليه⁽⁴⁶⁾.

ولما كان بطليموس يقف إلى جانب الرومان وقفة الرجل المخلص المطيع في حروبهم من أجل إبادة الثورة التي أرعبتهم لفترة طويلة من الزمن، امتدت إلى 8 سنوات، فبعد نجاح مساعداته التي توجت بمقتل زعيم الثورة، كافأه مجلس الشيوخ بهدية تمثلت في كرسي من العاج و حلة مركزشة، وكيل من الذهب وهي من هدايا روما التقليدية التي دأبت على منحها لاتباعها على تخوم المقاطعات إشعارا بضرورة بقائهم حلفاء أوفياء لها⁽⁴⁷⁾، فلقد اتحفوه بها ليزداد إخلاصا وركوعا لهم وتتكرا للمغرب في الوقت الذي تشتت و تفككت مقاومة المغاربة بعد مقتل زعيمهم النوميدي تاكفاريناس، الأمر الذي ترك فراغا واثرا سيئا في صفوف الثوار النوميديين غير أن ذلك لن يقف حاجزا أمام موقفهم تجاه الرومان الغزاة، بل سيزيدهم عزيمة وإصرار على مواصلة درب الكفاح التحرري، من أجل تطهير أرض بلاد المغرب، وهو ما تجسد بالفعل بدليل قيام ثورات أخرى تحت قيادة رجال تشبعوا بالروح الوطنية وتحمسوا لتحرير الوطن.

نتائج الثورة:

أفرزت الثورة مجموعة من النتائج يمكن إيجازها فيما يلي:

- 1 - نهاية الثورة وتكبد الطرفين خسائر مادية وبشرية فادحة.
- 2 - مقتل الزعيم النوميدي تاكفاريناس عام 24م الذي كان له بالغ الأثر في تشتيت صفوف المقاومة.
- 3 - اتساع رقعة الاحتلال الروماني حيث وقع التوسع في عملية تقسيم الأراضي الجديدة فأصبح لها خطوط رئيسية تتركب من خط يمتد عرضا من الشمال الغربي من مكان يقع بين سكيكدة و عنابة لينتهي في الجنوب الشرقي قرب قابس ومن خط ينزل طولاً من الوطن القبلي ويكون مع الخط الأول زاوية قائمة في حيدرة على بعد 32 كلم من الشمال الشرقي من تبسة⁽⁴⁸⁾.
- 4 - التعديلات التي اتخذتها الإدارة الرومانية، حيث أحدثت تغييرا في تخطيط حدود المملكة النوميديّة وجعلت الناحية التي بين دلس وواد الرمل شبه وطن مستقل تحت إسم موريطانية السطايفية وقاعدته مدينة سنقيس.
- 5 - استفادة البربر من التقنيات العسكرية المعاصرة إثر احتكاكهم بتاكفاريناس، الذي اكتسب الخبرة العسكرية الرومانية أيام تجنيده في الجيش الروماني.
- 6 - خضوع البربر خضوعا سطحيا لسلطة روما⁽⁴⁹⁾.
- 7 - نجاح خطة القادة الرومان في التخلص من زعيم الثورة تاكفاريناس وإيادته ثورته التي أرعبت العدو الرومان.

في ختام هذه الدراسة توصلت إلى مجموعة من الاستنتاجات يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- 1 - تعد ثورة تاكفاريناس من أبرز الثورات الجزائرية التي هزت الكيان الروماني هذا عنيفا، وجعلتهم يحسبون لها ألف حساب.

2 - ثورة تاكفىاريناس صورة واضحة وتعبير راسخ عن أولئك النوميدي الأحرار الذين أبو إلا أن يساهموا بمجهوداتهم الجبارة في عملية تحرير بلادهم من الرومان ومن النوميدي الموالين لهم.

3 - دهاء وشجاعة تاكفاريناس جعل الدولة الرومانية تأخذ احتياطاتها وتلجأ إلى خطط أكثر صرامة من أجل إبادة الثورة وإنهاء وجودها، ولعل أكبر دليل على قوة الثورة هو تعدد القيادات الحربية الرومانية وتعاقبها الواحدة تلو الأخرى.

4 - نجحت الثورة في بدايتها لكنها لم تصل إلى مبتغاهها، بسبب عناصر الخيانة المدسوسة في بعض صفوف النوميدي نتيجة تحريض الرومان لهم ومساومتهم بشتى الطرق.

5 - إن ثورة النوميدي الثائرين لم تقتصر فقط على الذين استوطنوا في الأودية والمدن والقرى ودخلوا في نطاق المدينة بعد اتصالهم بالفينيقيين والقرطاجيين، بل أيضا بربر المناطق الجبلية والصحراوية، وكانوا لا يزالون على نزعتهم القبلية فكانت مقاومتهم للرومان شديدة.

6 - إن إرسال تاكفاريناس لوفد إلى الإمبراطور تيبيريوس يهدده باستمرار الثورة لدليل قاطع عن انتصاراته وقوة المقاومة وقدرتها علو مواصلة الكفاح ضد العدو.

7 - نجاح الثورة في المرحلة الأولى مكن من رد الاعتبار للمقاومة النوميديية المورية، التي كشفت عن قدرة زعمائها في قيادة المعارك.

8 - شمولية الثورة وتوسيع نطاقها الجغرافي، الدليل على نجاحها واستبسال زعمائها في مواجهة الرومان ومقاومتهم رغم الظروف الصعبة التي لاحقت الثوار.

9 - القائد النوميدي تاكفاريناس لا يقل طموحا وقوة وشجاعة عن سابقيه أمثال يوغرطة، حنبعل، فرغم هزيمته وقتله، ونهاية ثورته، إلا أننا نحكم بنجاح الثورة أكثر من فشلها.

10 - لم تكن ثورة تاكفاريناس الأولى ولا الأخيرة بل كانت ضمن سلسلة المقاومات التحررية في بلاد المغرب القديم، ولعل من بين الثورات التي واصلت مسيرة النضال بعد ثورة تاكفاريناس نجد ثورة الشباب الريفيين (الدوارين)، ثورة فرموس وأخيه جيلدون الذين حملوا شعار التحرر ورد الاعتبار لبلاد المغرب القديم.

الهوامش:

-
- (1) - مبارك محمد الميلبي: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص 252.
- (2) - محمد الهادي حارش: التاريخ المغاربي القديم (السياسي والحضاري) منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، الجزائر، 1992، ص 71.
- (3) - محمد البشير الشنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م - 40م) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982، ص 54.
- (4) - المزملة : تعد أكثر القبائل شهرة وصلابة جاء اسمها في أشكال مختلفة منها موزولامي، ميزولاني، وميزولامي، افترن اسمها بالمقاومة الأولى التي واجهت حركة التوسع الروماني نحو الداخل النوميدي، إذ قاومت جيش الاحتلال سنتي 5 و 6م، تواصلت انتفاضاتها ضد الاستعمار الروماني في وطنها بمنطقة الأوراس وظلت طيلة فترة الاستعمار تقاوم بإصرار و عناد حتى اعتبرت أكثر القبائل النوميديّة إيذاء للرومان في نظرا المؤرخين.
- (5) - محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج1، ط1، مطبعة الحلبي وشركاؤه 1964، ص 344.
- (6) - أحمد سليمان: تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة، دار القصبّة للنشر، الجزائر، 2007، ص 188.

- (7) - محمد البشير شنييتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص53.
- (8) - أحمد صفر: مدينة المغرب العربي في التاريخ، ج1، دار النشر بوسلامة، تونس، ص289.
- (9) - الليمس: هو عبارة عن حزام عسكري واقى ومركب، يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية هي:
- أ - الخندق تتخلله أسوار وأبراج وحصون ومراكز محصنة مبنية بالحجارة أو بالطوب بحسب الجهات.
- ب- أجهزة محصنة منفردة تقع أمام الخندق ووراءه.
- ج- شبكة من الطرق مسطرة بالاعتماد على الضرورات الاستراتيجية.
- ومعنى ذلك أن الليمس ليس مجرد خط دفاعي فقط، إنما هو جهاز معقد يحكم وضعه ثم يشرع في عملية الاستعمار، ولقد نشأ الليمس عبر مرحلتين الأولى خلال القرن 1 ق.م يمتد من خليج السيرت الليبي شرقا إلى مدينة مليلية المغربية غربا والثاني خلال القرن 2 ق.م يمتد إلى ويلي غربا. للمزيد أنظر شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي/البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1969، ص184.
- (10) - يوبا الثاني: ينتمي يوبا الثاني إلى السلالة النوميدية، غير أنه يختلف عن أسلافه من الملوك، وهو يوبا الأول، ولد عام 46 ق.م، توفي والده عام 50 ق.م، وكان عمره 4 سنوات، أخذه يوليوس قيصر ونقله إلى روما حيث تبناه ورباه تربية رومانية، ولما توفي يوليوس قيصر عام 43 ق.م خلفه أغسطس قيصر واعتنى به ثم سلمه لأخته أكتافية، زوجة أنطونيوس، فنشأ يوبا الثاني رومانيا وأجلسه الرومان على عرش آباءه وزوجوه كليوباترا سلمي ابنة الملكة المصرية كليوباترة حتى بقي مخلصا للرومان، اتخذ مدينة شرشال (بول) عاصمة له، اهتم كثيرا بالأدب والمسرح والعمران، اتسعت مملكته إلى أن توفي عام 23م، للمزيد أنظر: محمد الصغير غانم: المملكة النوميدية والحضارة البونونية، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1998، ص138 وما بعدها.
- (11) - أحمد السليمانى: المرجع السابق، ص188.
- (12) - رشيد الناضوري: المغرب الكبير، العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية والسياسة، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص323.

(13)- الجيتول: هي قبائل ضاربة فيما بين المحيط الأطلسي غربا حتى فران شرقا، تتميز بالتنقل والترحال بين إقليم التل والصحراء المتميز الاقتصاد الرعوي وهي متعددة الأصول، جمعها إطار جغرافي متجانس نسبيا، للمزيد أنظر: محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص164 ومابعدھا.

(14)- محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص445.

(15)- مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص228.

(16)- رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص323.

(17)- محمد البشير شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ص54.

(18)- محمد الهادي حارش: ثورة تاكفاريناس (17-24م)، مجلة الدراسات التاريخية، العدد9، معهد التاريخ، الجزائر، 1995، ص130.

(19)- محمد البشير سنيتي: المرجع السابق، ص54.

(20)- محمد الهادي حارش: المرجع السابق، ص130.

(21)- رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص321.

(22)- محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص55.

(23)- مبارك الميلي: المرجع السابق، ص228.

(24)- محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص55.

(25)- رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص179.

(26)- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص179.

(27)- رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص319.

(28)- محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص56.

(29)- محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص346.

(30)- محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص57.

(31)- محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص346.

(32)- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص179.

(33)- محمد علي دبور: المرجع السابق، ص346.

(34)- محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص58.

(35)- محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص346.

- (36) - شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 180.
- (37) - سيرتا Cirta: معناها القلعة أو المدينة المحصنة، وهو ينطبق تماما على مكانها الحصين مدينة قسنطينة القديمة والحالية، للمزيد أنظر: محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 152.
- (38) - محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 58. 59.
- (39) - بطليموس: هو ابن الملك يوبا الثاني، ورث لقب الملك عن أبيه عام 23م أقامه الرومان على عرش الولاية، عرف بحياة الرفاهية والميل إلى اللهو والخمول والضعف، حيث ترك شؤون الدولة لحاشيته وعبيده المحررين وهو ما سهل عملية إزاحته والقضاء عليه ومن ثمة الاستلاء على ولايته، حيث قتله الإمبراطور كاليغولا عام 40م، غير أنه أثناء حفل ببلاد الغال، إثر ذلك استولى الرومان على الموريتانيين وجعلوها ولايتين رومانيتين، موريتانيا القيصرية وهي الشرقية وطنجة غربية، للمزيد أنظر: مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص 227.
- (40) - شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 173. 174.
- (41) - محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 346.
- (42) - محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 59.
- (43) - محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 347.
- (44) - محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 59.
- (45) - أوزيا Ausia: نسبة إلى قصر قديم روماني، كان قد هدمه ثوار تاكفاريناس أثناء ثورتهم يوجد بمنطقة سور الغزلان حاليا.
- (46) - محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 477.
- (47) - محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 60.
- (48) - شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 180. 181.
- (49) - أحمد توفيق المدني: قرطاجنة في أربعة عصور من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 92.